تاريخ الإرسال: 2014/02/10 - تاريخ القبول للنشر: 3014/04/30 تاريخ النشر: 2014/07/06

وصف المركز العسكري بالجلفة من خلال كتاب "صيف في الصحراء" للكاتب أوجين فرومنتان

علالي محمود. جامعة الأغواط

ملخص :

يعتبر الكتاب أحسن وسيلة للقيام بالمهمة الدعائية ، و بالتالي انطلق الكتاب الفرنسيون في توثيقهم لكتابة تاريخ الجزائر من فكرة أن المنتصر هو الذي يكتب التاريخ ، و حاولوا إخراج أفكارهم و معلوماتهم من أذهانهم و توصيلها للآخرين بطرق شتى . و كانت هذه الأفكار مشحونة بالحقد و الكراهية التي غذّاها الصراع التقليدي بين الإسلام و المسيحية ، أي نظرة الغرب المسيحي للشرق الإسلامي .

و يعتبر أوجين فرومنتان Eugène Fromentin أحد الفنانين الفرنسيين المهتمين بطبيعة الشرق ، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معاني واسعة ، فألهمته هذه الطبيعة حسا مميزا و فجّرت فيه عاطفة و خيالا جسّدهما في لوحاته و في كتاباته ، خاصة كتاب "صيف في الصحراء" الذي نحاول من خلاله استقراء وصفه للمنطقة . و قد حاولنا في هذه المداخلة أن ننطلق من الإشكالية التالية: ما مدى نجاح الكاتب في تسجيل واقع المنطقة؟

و بعد استقرائنا لما جاء في كتاب"صيف في الصحراء"، وجدنا أن الكاتب لم يتخلص من شخصية الرسام الذي يسجل كل ما تلتقطه العين و تسمعه الأذن ، و يركز على أدق التفاصيل للتعبير عنها ، و هذا ما يعترف به الكاتب في إحدى صفحات الكتاب بقوله:"بدا لي و أنا أنجز الكتابين أن أقارن بين طريقتين للتعبير بدتا لي متشابهتين قليلا ، و كان عليَّ أن أعرف إذا كانت آليتهما هي نفسها أو تختلفان ، و أن أعرف مصير أفكاري و أنا أنقلهما من عالم الأشكال و الألوان إلى عالم الكلمات ، هذه الفرصة لن تتأتى إلا نادرا"[1].و رغم ما جاء في الكتاب من خيال و أحلام مستمدة من ذاكرة الكاتب ، إلا أنه استطاع أن يصور لنا عالمه الطبيعي الذي استمد منه أفكاره التي تسبح في عالم الخيال الواسع عوض عالم الحقيقة المحدود.

مقدمة:

يعتبر الكتاب أحسن وسيلة للقيام بالمهمة الدعائية ، و هو عبارة عن رسالة فكرية قابلة للتداول و التناول بين الناس و بشفرة معينة ، هذه الرسالة طرفها الأول هو المؤلف و طرفها الأخير هو القارئ أو المستفيد[2] ، و بما أن فرنسا حققت الانتصار حين سقوط السلطة العثمانية ، انطلق الكتاب الفرنسيون في توثيقهم لكتابة تاريخ الجزائر من فكرة أن المنتصر هو الذي يكتب التاريخ ، و حاولوا إخراج أفكارهم و معلوماتهم من أذهانهم و توصيلها للآخرين بطرق شتى . و كانت هذه الأفكار مشحونة بالحقد و الكراهية التي غذّاها الصراع التقليدي بين الإسلام و المسيحية . و يعتبر أوجين فرومنتان Eugène Fromentin أحد الفنانين الفرنسيين المهتمين بطبيعة الشرق ، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معاني واسعة ، فألهمته هذه الطبيعة حسا مميزا و فجّرت فيه عاطفة و خيالا جسّدها في لوحاته و في كتاباته ، خاصة كتاب "صيف في الصحراء" الذي نحاول من خلاله استقراء وصفه للمنطقة.

1) الكاتب:

ولد فرومنتان بمدينة لاروشيل La Rochelle بفرنسا في 24 أكتوبر 1820 ، أبوه طبيب هوايته الرسم[3] . زاول دراسته بكوليج روايال بمسقط رأسه ، ثم اتجه سنة 1839 إلى باريس لمواصلة دراسته في الحقوق ، و تحصل سنة 1843 على شهادة الليسانس[4].

ظهرت عليه علامات النبوغ و الموهبة منذ الفترات الأولى من شبابه ، حيث بدأ في نظم محاولات شعرية منذ سن الخامس عشرة ، و استمر في ذلك حتى سن الخامسة و العشرين[5] . و بعد حصوله على شهادة الليسانس حاول أبوه أن يرغمه على مواصلة دراسته للحصول على شهادة الدكتوراه ، لكن فضل فرومنتان التوجه إلى دراسة فن الرسم مستجيبا لموهبته الفنية ، و بذلك تخلى نهائيا عن دراسة الحقوق . و قد نظم أول معرض له بباريس سنة 1845 ، و منذ ذلك التاريخ بدأ يشق طريقه نحو فن الرسم ، حيث تأثر كثيرا بالمذهب

الرومانتيكي الذي يعتبر الطبيعة إلهاما للأفكار ، و بالتالي عشق فرومنتان حياة الترحال و التنقل لأنه ضاق ذرعا بالأشياء الثابتة التي لا تتغير في الطبيعة ، و يتوق شوقا للأشياء العابرة المتغيرة.

قام فرومنتان بثلاث رحلات إلى الجزائر[5] ، زارها في المرة الأولى في 12 مارس 1846 ، إذ أقام بالبليدة من 12 مارس إلى 10 أفريل، و قام بجولات سياحية مع صديقه دي مينيل Armand Du Mesnil إلى منابع الوادي الكبير و مضايق الشفة و عين تلازيت بقمة الأطلس البليدي[6] ، و دامت رحلته حوالي أسبوعين . أما رحلته الثانية فكانت في 2 أكتوبر1847 إلى غاية 20 ماي 1848 ، و دامت حوالي ثمانية أشهر ، حيث زار خلالها كل من الجزائر و البليدة و تيبازة ، ثم انتقل إلى سكيكدة و قسنطينة و عين مليلة و دوار عين يقوت ، ثم واصل مغامرته نحو باتنة و القنطرة ثم بسكرة التي وصلها في 30 فيفري 1848 و مكث بها حتى 17 أفريل ، إذ اغتنم خلالها الفرصة لزيارة بعض واحات الجنوب الشرقي مثل سيدي عقبة و بوشقرون و ليشانة و طولقة . و عند عودته نحو قسنطينة عرّج على بريكة و الوطاية ، و أنهى رحلته بالعودة إلى الجزائر في 19 ماي 1848 ، و منها إلى فرنسا.

و بعد أربع سنوات تقريبا ، أي في بداية نوفمبر 1852 يعود إلى الجزائر في رحلة ثالثة ، و يحدد وجهته هذه المرة نحو الأغواط التي وصلها في 3 جوان 1853 ، و في طريقه إليها شاهد كل من المدية و قصر البخاري و عين وسارة و الجلفة و سيدي مخلوف ، و دامت هذه الرحلة تسعة أشهر. و في مدينة الأغواط شرع فرومنتان في تأليف كتابه المعروف بصيف في الصحراء "Un Eté dans le Sahara" ، و أخذ يسترجع ذكرياته من رحلاته السابقة مسجلا ما عاينه بروح الرسام و ليس بروح الكاتب ، و هذا ما عبّر عنه في إحدى مراسلاته إلى صديقه دي مينيل ، فيقول :"...أنا أشعر بكل نقص فيما ألفت و لكنني لا أستطيع فعل شيء الآن...تبدو كتاباتي مفصول بعضها عن بعض كأنها لوحات تحتاج إلى أن أربط بينها ، لم أشأ أن أخدع نفسي ، أجدني أتصرف كرسام على الرغم مني ، بيد أنني لا أشك في وجود جو عامر يلم شعثها و لا سيما جو من

الحرارة و القوة"[7]. و قد استطاع فرومنتان أن يمزج بين العاطفة الفنية الجياشة و بين أحاسيس الأديب الذي يستلهم أفكاره من مشاهدته الطبيعة ، و يصدر كتابيه ، الأول "صيف في الصحراء" و الثاني "سنة في الساحل".

2) الكتاب:

جاء كتاب "صيف في الصحراء" أول الأمر في شكل ملخصات لرحلة سفر ، و بالتالي رفض سنة 1853 عندما قدم للطبع لأن الكتابات الروائية لم تكن منتشرة كثيرا ، و لم يلق القبول إلاّ في الفترة من 1 جوان إلى 1 ديسمبر 1854 ، عندما نشر في مجلة باريس في شكل حلقات متفرقة ، ثم نشر في شكل كتاب لأول مرة في نوفمبر 1856 من إصدار مؤسسة ميشال ليفي[8] . أما كتابه الثاني الذي عنونه ب"سنة في الساحل Une année dans le Sahel"، و الذي أنهى كتابته في سنة 1856 تم نشره في صائفة 1857 في مجلة الفنان L'Artiste ثم في مجلة العالمين Revue des deux mondes في نوفمبر و ديسمبر 1858. و تم نشر النسخة كاملة في مطابع ميشال ليفي في مارس 1859 ، و بعد ذلك تم جمع الكتابين في طبعة 1887، التي تم إعادة طبعها كما نشرت في سنة 2004 و هي التي بين أيدينا اليوم ، نحاول أن نعالج من خلالها كيفية وصف الكاتب في كتابه الأول للمركز العسكري بالجلفة.

3) محتوى الكتاب :

1- الإهداء إلى زميله أرماند دي منيل
2- مدخل
3- من المدية إلى الأغواط :(72 صفحة) (من ص1 إلى ص72)
4- الأغواط :(70صفحة)(من ص73-143).
5- تاجموت-عين ماضي: (44صفحة) (من ص145-189)

4) وصف للمركز العسكري بالجلفة:

يعتبر هذا الكتاب تسجيل لمجموعة من الأفكار حول الجزائر ، و منذ الصفحة 24 بدأ الكاتب في الحديث عن منطقة الجلفة إلى غاية الصفحة 54، حيث بدأ بالوصف الجغرافي للمكان إذ يذكر أنه من منطقة بوغار تبدأ الصحراء ، التي أخذ في شرح معناها اعتمادا على ما قاله الجنرال دوماس Daumas في كتابه "الصحراء الجزائرية" ، و يذكر أن معناها مشتق من السحور ،"لحظة من الصعب أن يمسك بها و التي تسبق طلوع الفجر و خلالها في شهر رمضان نستطيع أن نأكل و نشرب و ندخن"[9]. و حسب الكاتب فإن الصحراء تضم صنفين من السكان مختلفين ، إحداها أصلية متمدنة تسكن المدن و القرى و القصور ، تتمركز حيث يوجد الماء تعتمد في معيشتها على الفلاحة ، و الثانية تتكون من البدو الرحل الذين يعيشون تحت الخيم ، و تمارس حرفة الرعي ، و يكوّن هذين الصنفين مجتمعا متآلفا يقوم على المصلحة المشتركة بينهما[10] . و من خلال طبيعة الكاتب الفنية ، يحاول أن يصف الصحراء للقارئ الأوروبي من خلال المشاهد التالية:

- ✓ أن الصحراء تمثل أرضا شاسعة منبسطة لا شيء يلوح فيها للبصر ، تنعدم فيها الطرقات و آثار القوافل التي توجه السير و ترشد الإنسان إلى الوجهة الحقيقية .
- ✓ الصحراء بلد كبير شبه فارغ بأفق هادئ يخيم عليه الصمت من جميع الجهات.
- ✓ ركّز في هذا المشهد على الشمس الحارة و الحارقة التي تلفح وجه الإنسان و ترهق روحه و تثقل كاهله.
- ✓ وصف الرياح الهوجاء التي تغطي السماء بلون رمادي و كثبان رملية دائمة التحرك من مكان إلى آخر حسب اتجاه الرياح[11].

كما يصف طبيعة الحياة في المنطقة التي تتمثل أساسا في بعض الخيم المنصوبة هنا و هناك ، أو في قافلة جمال أو مجموعة من الفرسان ، التي تمثل للكاتب لوحة فنية حية خاصة عندما يصل إلى مواطن أولاد نايل سواء

في عين وسارة أو في قلتة السطل ، حيث تتغير الحياة في الصحراء بوجود تلك الخيمة الكبيرة المعدة للضيوف خصيصا مخططة بالأحمر و الأسود ، و هي مفتوحة على مصراعيها . و يظل الكاتب يبحث عن الإنسان في هذا الفضاء الشاسع ، فيلاحظ ثلاث خيم و أكواخ من القش ، و دوارا صغيرا لقبيلة أولاد يحي إحدى بطون عرش أولاد نايل[12].

و شبه بعض الدارسين مدن شمال إفريقيا بالخلية التي تتكون من المسجد و المقبرة و السوق ، يحصنها سور به أبواب ضخمة لا تفتح إلا في أوقات محددة[13]. و الشيء الملفت للمدن الصحراوية هو طابعها العسكري ، و هذا ما حاول الكاتب إبرازه عند وصفه لمدينة بوغار التي كانت تمثل قلعة عسكرية ، فذكر أنها "قلعة فرنسية على شكل مركز حراسة كبير متقدم... فوق قمة جبل عال به أشجار الصنوبر الكثيفة دائمة الاخضرار"[14]. و يواصل الكاتب في إبراز عظمة فرنسا و قوتها ، عندما يصف لنا المركز العسكري بالجلفة ، و الذي يسميه ببرج سي الشريف ، حيث يقول : "دخلت الفناء دون أن أدري إلى أين أتجه ، في كل ناحية من نواحي المدخل باب ضخم الذي وجدته مفتوحا على مصراعيه ، الفناء كان خاليا بدا لي كبيرا...في أقصى الفناء يظهر مدرج به درجات قليلة يقود إلى شرفة عالية مدعومة بأعمدة بيضاء"[15]. كما يصف في مكان آخر الغرفة الكبيرة البيضاء التي كانت نظيفة و يقدم فيها الطعام ، كما كانت مجموعة من الزرابي الجنوبية تزيّن الجدران[16]. و يذكر الكاتب أن هذا السكن كان مخصصا في نفس الوقت كمكان إقامة للخليفة ، و كقلعة و مكان توقف للقوافل[17]. و من هنا نلاحظ مساهمة الكاتب في تنفيذ خطة بلاده و إستراتجيتها الاستعمارية التي تدعي فيها امتلاكها للجزائر في مدة وجيزة ، و ذلك بنقله لنا أن هذا المركز تم تشييده في مدة خمسين يوما في عهد الحاكم العام الجنرال راندون ، من طرف الفرقة التي كان يقودها الجنرال يوسف[18]، و بالتالي زال الخوف الذي كان يتهددها من طرف المقاومين الجزائريين ، أي تحقيقها للتهدئة[19].

و رغم الثقافة العنصرية التي كانت سائدة في أوروبا ، إلا أن الكاتب كان واقعيا نوعا ما في وصفه لشخصية"الخليفة سي شريف"، الذي كان حسبه طويل و سمين ، و تقريبا بدون لحية ، و عيون حمراء ، و يلبس الحائك الأبيض بدون برنوس ، كما يتأمل لباس القبيلة التقليدي ، الذي يضفي على هذه الشعوب العظمة و طهارة التاريخ . و يضيف أن سي شريف كان يوزع حياته بين الخيمة كإقامة أصلية و البرج كإقامة رسمية ، و لا يأتي إلى هذا الأخير إلا في ساعات عمله عندما يستدعى للحضور أو عندما يجب عليه استقبال ضيوفه[20]. و حسب اعتقادنا أن بعض القيادات الجزائرية تعاونت مع الاحتلال ليس من أجل مصالحها الخاصة ، و إنما حفظا للنسل و الذود بقبائلها و أعراشها من حرب الإبادة و التنكيل ، خاصة بعدما أصبح الاحتلال حقيقة واقعة ، إذ يعترف الكاتب في مكان آخر بحالة الذعر و الخوف تجاه الجزائريين ، و ذلك حينما عبّر له الملازم"ن..."بالقول:"...عندنا في فرنسا ننتقم بسرعة أو ننسى أحقادنا ، الفرق هنا أننا لا نعرف أبدا المدة التي يدومها حقد عنيف لترى ماذا يفعلون ، نقول إنهم عاجزون عن التذكر و أقسم بأنه سيأتي اليوم الذي ينتقمون فيه و يصفّون حسابهم معنا ، تكون لهم أكبر متعة و مسرّة عندما يملؤون بطني بالحجارة أو يعلقونني حيا ليصنعوا من جلدي طبلا"[21].

و لم يهمل الكاتب إعجابه بحسن استقبال سي شريف له و لمن معه ، و يذكر أن الجزء الأسفل من البرج مخصص للمسافرين و الضيوف ، بينما الطابقين العلويين فيستغلهما كل من سي شريف و أخوه الأصغر بلقاسم و ابن عمهما ، حيث توجد نسائهم و الخدم[22]. و يذكر أن زوجة سي شريف سيدة جميلة من أصل إسباني تم تزويجها له من طرف الأمير عبد القادر عندما كان خليفة له ، و كان لهما ابن صغير عمره أربعة سنوات على الأكثر[23]. أما أخوه بلقاسم فقد كان متزوج لامرأتين ، لا يسمح له أخوه سي شريف بخوض المعارك ، يخرج بلباس الاحتفال في عدّة الصيد محروسا بسلوقييه مع مربي و مروضي الطيور الصائدة . و يواصل

الكاتب وصفه للمكان و الإنسان و حتى الحيوان إلى غاية وصوله إلى مدينة الأغواط و زيارة القصور المحيطة بها.[24]

و في الأخير يمكننا القول أن الكاتب لم يتخل عن نظرته الاحتقارية للجزائري بصفة عامة، حيث حاول في كثير من الحالات نفي وجوده و تهميشه و تفسير سلوكه انطلاقا من شعوره و حكمه المسبّق ، فالجزائري في تصوره لا شيء يفرقه عن الحيوان المخيف ، فهو تارة يقارن بالكلب في حذره ، و تارة أخرى بالوحش المفترس ، و هذا ما نستشفه من وصفه لصاحب كوخ منعزل في الغابة بقوله:" إنه من هذا المكان الخفي يفتح عينيه على الطريق يراقب الأشخاص الذين يمرون فيلاحظ عددهم ، و يتأكد من الطريق الذي يسلكونه ، إنه حذر...في بعض الأحيان يراقبك أحد الريفيين المرتابين من بعيد و أنت لا تشعر و بدون علمك..."[25]. و مما نأسف له هو أن هذا الكتاب و غيره من الكتابات الفرنسية الأخرى ، أضحت هي المصدر الأساسي لصورة الجزائر و الجزائري للباحثين في التاريخ و الحياة الاجتماعية ، و عليه يجب علينا أن نعيد النظر في ما نقل إلينا من معلومات مشوهة و بوجهة نظر غربية.

الهوامش والإحالات:

[1]–**Eugène Fromentin**, Sahara et Sahel, Avant-propos par Henri Gourdin (Ed.Paris-Méditerranée,Paris, 2004),p.56.

[2]– **سفند دال**،تاريخ الكتاب من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر،تعريب محمد صلاح الدين حلمي،(المؤسسة العربية للنشر و التوزيع،القاهرة،1958)،ص37.

[3]– **Eugène Fromentin**, Un été dans le Sahara, présentation et notes par Anne Marie Christine,(Ed. Le Sycomore, Paris,1981),p.259.

[4]– **Ibid**,p.259.

[5]– **Ibid**,p.290.

[6]– استغرقت مدة إقامته في الجزائر خلال هذه الرحلات الثلاث أكثر من 500 يوم.أنظر:

Eugène Fromentin, Sahara et Sahel, Avant-propos par Henri Gourdin (Ed.Paris-Méditerranée,Paris, 2004).

[7]– استطاع خلال زيارته الأولى رسم مجموعة من اللوحات منها:أشجار الزيتون بالبليدة ، و مقهى بالبليدة...أنظر: نفس المرجع،ب.ص.

[8]–**Ibid**,p.V.

[9]– **Ibid**,in:Avant-Propos.

[10]– **Ibid**,p.24.

[11]– **Ibid**,p.25

[12]– **Ibid**,p.26,27.

[13]– **Ibid**,p.32,36.

[14]– **Roger le Tourneau**,Les villes Musulmanes de l'Afrique du nord, (Ed. maison des livres,Alger,1975),pp.26-41.Et voire aussi:**Odette Petit**, Laghouat essai d'histoire sociale,(Ed. Collège de France,Paris,1976), p.30,31.

[15]–**Eugène Fromentin**, Sahara et Sahel,op.cit,p.34.

[16]– **Ibid**,p.40.

[17]–**Ibid**,p.41.

[18]–**Ibid**,p.49.

[19]–**Ibid**,p.49.

[20]– بينما تثبت الدراسات التاريخية أن المقاومة في الجزائر لم تتوقف إلى غاية الحرب العالمية الأولى .للاطلاع أكثر أنظر: **يحي بوعزيز**،ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين،(ط1،دار البعث للطباعة،الجزائر،1980)،ج1و2.

[21]**–Eugène Fromentin**, Sahara et Sahel,op.cit,p.50.

[22]**–Ibid**,p.154.

[23])**–Ibid**,p.50

[24]**–Ibid**,p.51.

[25]**–Ibid**,p.75,76.